مرسوماً فى عين المؤلف ، لكنه - كما سبق أن أشرت - كان أمراً غائباً ، وكل ما قصده أن يقدم هذه المجموعة المعرفية الشاملة فى إطار فن مشوق . فالفن لم يكن مقصوداً لذاته ، بل كان وسيلة لنقل أفكار الكاتب ، وهو هدف لا يجب أن يغيب عن أذهاننا ونحن نتعرض للكتاب .

وقد أشرت إلى ندرة وجود بقايا أسلوب العصر المنقرض فى العناية بالزخرفة اللفظية إلا فى مواضع قليلة أذكر منها تلك المحاورة التى جاءت على لسان السائح الإنكليزى : « إنى أرى من الواجب علىَّ وجوب الفروض اللازمة أن أبذل أقصى جهدى فى استجلاب رضاكم ، وإدخال السرور عليكم ، حيث كنت السبب فى تغربكم عن هذه البلاد ومفارقة الأهل والوطن والأولاد وتحمل متاعب السفر ، فلا هَمَّ لى سوى الاشتغال بما يخفف عليكم مشقة الغربة وصعوبة الفراق بالاطلاع على ما تحبون الاطلاع عيه من أحوال هذه البلاد » . فقال الشيخ : «لاعدمتُ معروفك ، وغاية مرادى أن أقضى هذه المدة فى استفادة ما عساه يكون فيه منفعة أوطاننا ، وفى نيتى أن أكتب مجموعاً أضمنه ما أراه وأستحسنه فى هذه السياحة فى كتاب ليكون تذكرة لى إذا عدت إلى سكنى وطرفة مجلوبة إلى أهل وطن » [٣١] ، ومثل هذه الأساليب قليل فى علم الدين وهو ما يحمد لعلى